

افران الجبس التقليدية ودورها في تنشيط الحركة العمرانية

في وادي سوف مطلع ق 20

أ . فاتح باهي

taher75b@gmail.com

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

ملخص :

عرف المجتمع السوفي خلال العقود الماضية ،أنواع عديدة من الصناعات التقليدية ، التي وإن اتصفت بالبساطة والسهولة إلا أنها لعبت دورا مهما في تنشيط الحركة الاقتصادية ، وشكّلت دعامة من دعائم الحياة اليومية للناس في تلك المنطقة الصحراوية المتميزة بقسوة الظروف الطبيعية وصعوبة العيش فيها ، ومن هذه الصناعات نجد صناعة جبس البناء ، والتي تعد الصناعة الرئيسية بالمنطقة، لأنها تتعلق بإنتاج المادة الأولى لإقامة البيوت والمسكن التي يأوي إليها الفرد السوفي، وشهدت صناعة الجبس تطورات عديدة عبر الزمن ، سواء من حيث طريقة التحضير والإنتاج ، أو من جانب طرق التوزيع والاستعمال، وساعد على هذا التطور الحاجة الملحة لهذه المادة الرئيسية في عملية البناء ، وكذا توفر المواد الأولية و وجود اليد العاملة .

Résumé

Au cours des dernières décennies, la société soufis a connu de nombreux types d'industries traditionnelles qui, bien que caractérisées par la simplicité et la facilité, ont joué un rôle important dans la stimulation du mouvement économique. C'est un des piliers de la vie quotidienne des habitants de cette région désertique caractérisée par la dureté des conditions naturelles et la difficulté d'y vivre. L'une de ces industries est la construction en gypse, principale industrie de la région, car elle est liée à la production du premier matériau nécessaire à l'établissement de maisons et de logements dans lesquels vit l'individu soufi. L'industrie du gypse a connu de nombreux développements au fil du temps, tant en termes de préparation et de production que de méthodes de distribution et

d'utilisation. Cette évolution a renforcé le besoin urgent de ce matériau clé dans le processus de construction, ainsi que la disponibilité des matières premières et la présence de main-d'œuvre.

توطئة:

عرف المجتمع السوفي خلال العقود الماضية، أنواع عديدة من الصناعات التقليدية ، التي وإن اتصفت بالبساطة والسهولة إلا أنها لعبت دورا مهما في تنشيط الحركة الاقتصادية ، وشكّلت دعامة من دعائم الحياة اليومية للناس في تلك المنطقة الصحراوية المتميزة بقسوة الظروف الطبيعية وصعوبة العيش فيها ، ومن هذه الصناعات نجد صناعة جبس البناء ، والتي تعد الصناعة الرئيسية بالمنطقة، لأنها تتعلق بإنتاج المادة الأولى لإقامة البيوت والمسكن التي يأوي اليها الفرد السوفي، وشهدت صناعة الجبس تطورات عديدة عبر الزمن ، سواء من حيث طريقة التحضير والإنتاج ، أو من جانب طرق التوزيع والاستعمال، وساعد على هذا التطور الحاجة الملحة لهذه المادة الرئيسية في عملية البناء ، وكذا توفر المواد الأولية و وجود اليد العاملة .

لمحة عن العمران في وادي سوف قديما:

إن العمارة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاستقرار ، فكلما أحس الانسان بالأمن الجسدي والغذائي أوى الى المأوى ، ومع التاريخ أخذ هذا المأوى أشكالا متعددة تماشيا مع ما وفرته الطبيعة وما وصل اليه الإنسان بذكائه ، بداية بالكهوف والمغارات الى بيت الخشب والشعر والجلود ثم البناء بالطين واللبن والجبس ، وهي نفس الخطوات تقريبا التي مرت بها العمارة في منطقة وادي سوف ، اذا استثنينا المرحلة الأولى وهي مرحلة الكهوف والمغارات ، ويرجع ذلك لطبيعة تضاريس المنطقة من جهة ، وتأخر اعمارها من طرف برايرة زناتة والقبائل العربية التي هاجرت اليها ابتداء من بدايات القرن الحادي عشر الميلادي¹ .

والمأوى الذي يرتاح فيه الفرد في مجتمع وادي سوف، يختلف باختلاف الظروف والأوضاع التي يعيشها، من حل وترحال بين حياة البداوة والريف، أو في الأوساط المدنية، وتأخذ هذه المساكن في اغلبها الصفة المؤقتة، وهذا جعلها بسيطة في شكلها متواضعة في بنائها، وساهمت في التطور العمراني الحضري، ويمكن تحديد ذلك في أربع مستويات: 1- مساكن البدو الرحل: الذين كانوا يسكنون في "الخيمة" أو "بيت الشعر".

2- المساكن الريفية (مساكن الغيطان): وهي مساكن متنوعة أقيمت داخل البساتين أو في اطرافها، ويأوي إليها البدو والحضر ويستعملونها بصفة مؤقتة في أغلب الأحيان.

3 - التجمعات السكانية (الحوش) كانت القرى والمدن في منطقة وادي سوف تتكون من مساكن ذات أبواب صغيرة، تبرز من فوق أسقفها بعض أغصان النخيل، وتتجمع هذه المساكن حول المسجد، وعلى أطرافه تنتشر وتتوسع البلدة "النزلة" مع وجود البئر في وسط الرحبة، التي تتصل بالشوارع الحلزونية التي تغطيها الرمال كلية².

4 - المنشآت العمرانية الفرنسية: شرع الفرنسيون منذ نزولهم بوادي سوف في تهيئة المباني والمنشآت العمرانية الخاصة بالجيش، والإدارة، والمصالح المختلفة، وقد حافظوا على مظهرين بارزين من التراث المحلي في البناء، وعملوا على تعميمه قانونيا، وهو الشكل التقليدي الخارجي الممثل في القباب والأروقة ذات الأقواس المتعددة، والمظهر الثاني ممثلا في مواد البناء المحلية (الجبس) والذي استعمل في الشكل الخارجي، لأنه يقاوم قساوة الطبيعة³، ويعتبر استعمال الجبس في عملية البناء نقلة نوعية في تاريخ العمارة المحلية في منطقة وادي سوف، حيث ان المجتمع المحلي لم يكن يستعمل هذه المادة في البناء من قبل، حيث درج على عيش حياة البداوة واستعمال الخيام وأكواخ النخيل⁴. وقد مرت هذه الصناعة بمراحل عديدة، من اكتشاف طرق انتاج الجبس، و التطور التدريجي

الحاصل على مر العقود ، حتى غدت هذه المادة عنصرا مهما في تسيير الحركة الاقتصادية لسكان المنطقة .

ظهور الجبس :

المادة الأولية لصناعة الجبس هي حجر التافزة⁵ ، ووجد هذا الحجر مغمورا تحت الرمال على شكل مقاطع في غيطان النخيل ، وعلى شكل مسطحات بالجهة الشمالية من المنطقة ، حيث تغلغ هذه الحجارة ثم تحرق ، وبعد تطور صناعة الجبس ظهرت الأفران التقليدية ، ففي خضم الصراع بين زناتة وطرود حول بناء قرية قرب تكسبت مانع اهل زناتة ، بحجة ضيق الأرض وشح الماء ، عمد طرود الى البناء خفية فحرقوا الجبس في سندروس⁶

وأثوا بالحجر من منطقة الفولية وبنوا لزعمائهم بيوتا صغيرة⁷ ، وفي رواية أخرى يعود ظهور الجبس الى حوالي سنة 1030 للهجرة في منطقة وادي سوف⁸ . ويتضح قدم هذه المادة ، حيث تم بناء عدة مساكن بحي الأعشاش ، كما تم بناء مسجد سيدي مسعود بالوادي سنة 1600م، غير أنها لم تكن في متناول الجميع ، ولم تكن المعارف المتعلقة بصناعة الجبس التقليدي قد خبرها سكان المنطقة.

صناعة الجبس وادي سوف:

وهي الصناعة الهامة الرئيسة بالمنطقة، لأنها توفر المادة الأساسية للبناء في المنطقة وتشترك في تحضير هذه المادة أيادي كثيرة مع تعدد مهام الإنجاز ومراحله كالتالي:

استخراج الحجارة:

يستخرجها الرجل السوفي من محاجر خاصة تدعى المقطع ، وتوجد في الناحية الشمالية ، تدعى حجارتها الدبدابة، هشة يتراوح عمقها ما بين نصف متر الى مترين ونصف ، ويتم استخراجها بسهولة ، اما التافزة الحجرية فهي صلبة وتكون غالبا قرب الماء وتوجد بالوادي في الناحية الجنوبية والغربية ، ويتطلب استخراجها عناء ومشقة،

أما حجار الترشة⁹ فهي رقيقة وتوجد عند الماء أو فوقه قليلا¹⁰.

حرق الحجارة :

كان يتم بطريقتين مختلفتين هما:

1- الحراروق : حيث يجمع كثير من حجر الترشة ويوضع على صفحة حجر التافزة على الأرض ، فييسط ويجعل فوقه كثير من الحطب والحشائش ، حتى يأخذ شكل القبة ، مع ترك الجوانب عارية ، لتضرم فيها النار حتى تنتشر في كامل الترشة ، وهذه الطريقة القديمة يستعملها الفقراء ، أو من كان في غوطه يحتاج شيء قليل من الجبس ، لبناء حوض أو سواقي ، أو بئر¹¹.

2 - الكوشة: نأخذ تعريفين :

- 1- هي فرن تقليدي يبنى من الجبس ، على شكل دائري ، حيث تكون بيت النار في الأسفل ومكان تركيب الحجارة المعدة للحرق في الاعلى¹².
- 2- وهي " فرن " يشيد بالجبس بالقرب من مقلع الحجارة، أو في منطقة خاصة قرب الغوط، وهي ذات شكل دائري له فتحتين، إحداهما في الأسفل وهي مكان الموقد الذي يوضع به الحطب، ويستخرج منه الجبس بعد انتهاء الحرق، أما الفتحة الثانية فتكون كبيرة في أعلي "الكوشة " وهي مفتوحة مباشرة للهواء. ويتم العمل بأخذ حجر التافزة ويركب في الكوشة حجرا فوق آخر حتى يصير كالقبة، ثم تلقى فوقه الحجارة الصغيرة التي نحتت من الكبيرة، وتوقد النار في فوهة الكوشة، وهي "الموقد " تحت الحجارة المتراسة. فيشتعل الحطب الذي هو عبارة عن جذوع النخل المهجورة، أو نباتات أخرى من " الزيتا " وغيرها¹³. (أنظر ملحق الصور الصفحات.. - 12 - 13 - 14)

تحضير مادة الجبس:

بعد الانتهاء من عملية الحرق ، يستخرج الجبس ويوضع في مكان صلب ، ويضرب بقوة سواعد العمال المفتولة بواسطة قطعة من الخشب تدعى الخبابة ، التي تدق الحجارة المهشة وتحولها الى مادة الجبس التي تشبه الدقيق المسحوق ، لكنها مخلوطة بالرماد واجزاء من الخشب المحترق ويدعى الفحم ، ويخلط هذا الجبس بعد ذلك بفتات الحجارة الدقيقة المتساقطة من الحجارة قبل حرقها وتدعى " المشاشة " ، ويحدث هذا الخلط زيادة في الكمية ، وتخفيفا من شدة الجبس وقوته حتى يكون سهلا للاستخدام في البناء ¹⁴ .

وبفعل الحاجة الملحة لهذه المادة الحيوية في عملية البناء انتشر تدريجيا في منطقة وادي سوف القرن التقليدي لإنتاج جبس البناء أو ما يعرف "بالكوشة" .

وتميز الجبس التقليدي بسرعة القبض والجفاف ، والمقاومة الجيدة لنار ، وغير قابل للاحتراق ، و غير ناقل للحرارة، ورخيص التكلفة ، وسهل الإنجاز ، وغير ملوث للبيئة ولا يشكل خطرا على الانسان ¹⁵ ، و تعتبر مادة الجبس المصنعة محليا عاملا مساعدا في انتشار التسقيف بالقباب نظرا لسرعة تصلبها وتماسكها هذا ما لم يتوفر حتى في مواد البناء الحديثة وما يتطلب الأمر إلا خفة ومهارة من طرف البنائين.

تطور الأفران التقليدية في وادي سوف:

لقد تطورت صناعة الجبس أواخر القرن التاسع عشر ، نظرا لتطور البناء وتمدد حركة العمران عن طريق السلطات الاستعمارية خاصة ، فتغيرت وسائل الانتاج من الحاروق البسيط الى استعمال الفرن التقليدي ، الذي حقق وفرة وغزارة ، واكتفاء ذاتي من مواد البناء الضرورية .

ويعود ظهور أول الأفران التقليدية لصناعة الجبس في منطقة وادي سوف الى ما يقارب اربعة قرون خلت ، في منطقة تسمى أرض أولاد داسي (غوط عرارم) ، شرق حي القارة الحالي ¹⁶ ، حيث بدأ تشكل هذه الأفران بشكل بسيط في أعالي غيطان

النخيل وتراوح عددها بين ثلاثة أو أربعة أفران في بادئ الأمر إذ توفرت المادة الأولية في أسفل الغوط ، والكوشة مكانها في دائرة الغوط الخارجية¹⁷ .

و بمرور الزمن زاد عدد الأفران التقليدية وشغلت الخط الممتد من نزل منقر الحالي الى مساكن الهبايته الحالية في القارة الشرقية¹⁸ ، واشتهر العديد من الأشخاص بامتلاكهم لهذه الأفران خاصة في فترة ما بعد الاستقلال ومنهم: الجيلاني هيبته و ابراهيم خلوط و معمر بله باسي و مصطفى منصورى والجيلاني داهم و المولدي فتح الله¹⁹ .

وتواجدت بعض الأفران في منطقة حي الجدلة جنوب حي القارة ، حيث توجد الافران شرقي الغوط وامتازت أفران الجدلة بنوعيتها الممتازة ، غير انها لم تكن متاحة لكافة الناس ، بل اقتصرت على بعض الأفراد ، نظرا لعدم القدرة على توفير الكميات الكبيرة من مادة ، بسبب أن صاحب الغوط والكوشة هو الذي يقوم بمفرده بكافة مراحل عملية تصنيع الجبس من استخراج المادة الأولية وتحضيرها وحرقتها ووصولها الى طحنها وتفتيت الحجارة المحروقة ولا يستعين بيد عاملة أخرى²⁰ ، ومن أقدم الأشخاص الذين ملكوا الأفران في حي القارة شخص يدعى " قيرح " وآخر من عائلة خلوط²¹ .

وقد كانت الافران في موقع بعيد عن السكان في بادئ الأمر، لكن بعد تطور العمران و تزايد عددهم تقرر تغييرها الى منطقة بعيدة عن العمران تقع غربي حي القارة الحالي سنة 1969م²² ، وهو التاريخ نفسه الذي أكده عبد القادر خلوط²³ .

وتجدر الإشارة الى أن عملية نقل الجبس في عهد الاستعمار وحتى بعد هذا العهد كانت بالطريقة التقليدية باستعمال القفاف على الظهر ، او استعمال الحمير والزنبيل²⁴ ، بشكل انفرادي او جماعي²⁵ .

وبانتقال الافران الى منطقة القارة الغربية زاد عددها و كبرت منطقة الاستغلال حتى وصل العدد الى ما يقارب المائة فرن تقليدي²⁶ ، وبقي الأمر على حاله حتى زحف العمران تدريجيا على منطقة النشاط للأفران وأصبح السكان على مقربة منها ، وتضرر

الناس من دخانها المتصاعد يوميا زيادة على غزو الاسمنت للمنطقة ، مما أدى الى بداية زوال هذا الأثر والتراث التاريخي للمنطقة .

مساهمة الأفران التقليدية لصناعة الجبس في تنشيط الحركة العمرانية والإقتصادية للمنطقة:

يتضح جليا الدور الكبير الذي لعبته أفران صناعة الجبس في إنشاء النمط العمراني للمنطقة أولا ثم المحافظة عليه ثانيا ، حيث برزت العمارة التقليدية التي استخدمت فيها المواد المحلية كالجبس المتوافق مع البيئة الصحراوية .

حيث ساهمت في بروز النواة الأولى للأحياء السكنية بالمعنى الحديث ، في حدود القرن 15م ، انطلاقا من قرية الرقم و الوادي المدينة وكوينين ، اما في الجانب التجاري والاقتصادي فقد كان للعمل في الافران وصناعة الجبس الأثر الواضح على أوضاع الناس اليومية وظروف معيشتهم .

وعن العلاقات التي كانت تنشئ بين العمال والمالّك للأفران ، يقول البّناء عبد الكريم شتحوّنه²⁷ : " أنه في سنوات 1947-1948م ، فتح شخص فرن تقليدي في منطقة كوينين فانفقت معه على شراء ما انتجه الفرن بمبلغ سبعة الاف فرنك ، ما قيمته 40 الى 45 زنبيل ، اما عن اوضاع العمال المادية فكانت متفاوتة ، لوجود الفارق بين المالك للفرن والعامل البسيط ، وكان مالك الفرن يُشغل مجموعة من العمال بأجر متفق عليه ، ويتبع المالك طريقة معينة في ترويج منتوجه وتسويقه ، حيث يذهب الى السوق يقابل الناس ويجلب الزبائن لشراء منتوجه، وفي حال تم الاتفاق على البيع يعود الى فرنه ويأمر عماله بنقل الجبس الى المشتري، ويوم الخميس أو الجمعة يذهب الى المشتري لأخذ المبلغ المالي ."

وساهمت صناعة الجبس في توفير مناصب عمل وتنشيط حركة التجارة المحلية ، عن طريق استقطاب اليد العاملة لشباب المنطقة ، مما جعل منطقة الأفران وجهة للكثير من

طالبي العمل ، حيث انعكس ذلك على أوضاع عائلاتهم وحسّن ظروفهم المعيشية ، بل وصل الأمر الى تكوين شبه تعاونيات لتشغيل الشباب مثل ما قام به المدعو الساسي غزولة²⁸ من منطقة حاسي خليفة حيث امتلك افران و شاحتين ومجموعة من العمال ، ويقوم بتوزيع الجبس في عدة مناطق²⁹ . ليوفر بذلك المادة الأساسية في العمارة المحلية التي راعت الظروف المناخية للمنطقة³⁰ وساهمت في تحريك عجلة الاقتصاد المحلي للمنطقة بتفعيل عملية البيع والشراء وحركة تدفق الاموال.

ودأب أصحاب الأفران على تسديد مستحقات العمال الأجراء نهاية كل أسبوع ، أي يوم الخميس أو الجمعة.

ولقد استقطبت هذه الصناعة اليد العاملة من خارج منطقة سوف ، حيث شهدت الأفران التقليدية بمنطقة غرب حي القارة في سنوات السبعينات من القرن 20 وفود أعداد من العمال الأجراء من مناطق مجاورة ، بل حتى من منطقة تبسة و بئر العاتر والشريعة ونقرين ، وكان لذلك الأثر الواضح على مستوى المعيشة اليومية لهؤلاء العمال وعائلاتهم ، حيث وجدوا في العمل بالأفران التقليدية المصدر الوحيد للاستزاق وتوفير متطلبات الحياة .

وبلغ عدد الأفران في تلك الفترة ما يقارب المائة فرن، في منطقة واحدة تمتد على مئات الأمتار، في مشهد رائع يلخص نبل مهنة استخراج وصناعة جبس البناء الذي بفضلله بنيت أغلب مناطق وادي سوف³¹ .

عائدات بيع الجبس والنشاط الزراعي:

اشتهرت المنطقة منذ عصور خلت بزراعة النخيل ، التي عُدّت رمزا من رموز الانتماء والهوية المحلية ، وبالتالي ظهر تعلق السكان المحليين بهذه الزراعة ، وهو الأمر الذي أولاه ملاك الافران و مُنتجو جبس البناء أهمية كبرى من خلال تخصيص جزء مهم من عائدات بيع الجبس والارباح الزائدة لزراعة النخيل ، لأنه يعتقد بأن النخلة هي أساس

عيش الانسان السوفي، مثل ما يقع في حال الوقوع في الدين ، حيث يتم سداده بعد بيع غلة النخيل في فصل الخريف.

ومن جهة أخرى فإن صناعة الجبس التقليدي وتجارته تعد من اهم ركائز الاقتصاد المحلي آنذاك ، ومن خلال هذه الصناعة وحركية الأفران، تولدت العديد من الانشطة الاقتصادية الملحقه والمكملة ، والتي تحتاج بدورها الى موارد بشرية كبيرة وأيدي متخصصة وماهرة³².

وما لبثت هذه الصناعة أن تناقصت بالتدريج وضعف نشاطها مما انعكس على حركية الاقتصاد في المنطقة، ولعل من أسباب زوال واندثار هذه الصناعة في منطقة حي القارة خاصة³³ ، هو : **أولا** : زحف البناء واحاطته بالأفران من جهات عديدة ، مما جعل السكان يتدمرون من الدخان المتصاعد من فوهات الأفران³⁴ ، ويراسلون الجهات المحلية ومطالبتها بتغيير مكان الأفران.

ثانيا: ظهور مادة الاسمنت والخرسانة المسلحة ، والتي لجأ اليها السكان لبناء مساكنهم ، بعد تأثرهم بالتطور الحاصل في أنماط العمران للمناطق المجاورة .

ثالثا : عزوف الشباب عن العمل في الأفران التقليدية ، للمشقة الكبرى التي يعانيتها العامل في صناعة الجبس بالطريقة التقليدية .

مآل الأفران بعد توقف النشاط³⁵ :

بعد القرار بتوقف أفران الجبس التقليدي و أمر الملاك بالانتقال الى مكان بعيد عن العمران ، وللأسباب الآنفه الذكر ارتسم واقع جديد لمنطقة النشاط بحي القارة الغربي ، حيث بدأت الأفران بالاختفاء تدريجيا ، عن طريق دفنها وطمس معالمها ، وارتفع مستوى الأرضية المقامة عليها منطقة النشاط ، حتى غمرت الأتربة كل الأفران - (ما يقارب 100 فرن -) ، ولم تبق لها شواهد تذكر ، وفي مرحلة لاحقة قام أصحابها ببناء أسوار اسمنتية حولها، و بناء مساكن فوقها ، وأصبحت منطقة أهلة بالسكان ، وهي

الآن تعرف باسم حي القارة الغربية ، والحقيقة تقال لو كان الأمر في بلد أوربي يعرف للتراث التاريخي والأثري قيمته ، لأبقى على المنطقة بكامل آثارها ومعالمها ، لتكون مرجعا للأجيال ، فبفضل هذه الأفران التقليدية تم صناعة المادة الأساسية لعملية البناء في منطقة وادس سوف ، وأغلب المنشآت منذ العهد الاستعماري بل وحتى قبل ذلك العهد تم بناؤها بالجبس المحل المصنّع في الأفران .

انعكاسات زوال الافران التقليدية :

سبق الكلام عن أسباب زوال الأفران وبالتالي اندثار الجبس كمادة مهمة في عملية البناء ، وحلول الاسمنت محله ، وكل هذا سبب انعكاسات على سكان المنطقة بأسرها ، وهي في مجملها سلبية ، خاصة في المجال الصحي و البيئي حيث أن استبدال الجبس التقليدي في منطقة سوف بمادة الاسمنت خاصة ومادة الأميونت الخطيرة ، شكل خطرا كبيرا على الاشخاص العاملين في حقل التصنيع والبناء على حد سواء ، حيث تبين أن هذه المواد مسببة لأنواع عديدة من السرطان ، وقد حاولت السلطات تدارك الأمر عن طريق بعض الاجراءات الاحترازية التي تهدف الى الحد من خطورة استعمال هذه المواد، مثل غلق بعض المصانع المنتجة للاميونت والتدخل في اعادة النظر في بعض النسب المشكلة لمادة الاسمنت ايضا ، واصبح لزاما على الخبراء والمعماريين التحري في استعمال المواد الانشائية اللازمة لعملية البناء ، ومراعاة خصوصية المنطقة ، فالمبنى مهما كان نوعه يُصمم ليُدوم ويصمم ليقصد الطاقة ، كما يصمم ليكون صديقا للبيئة وتأمين الصحة والراحة لساكنيه³⁶ .

ومن هنا تعالت الأصوات بالرجوع الى العمارة التقليدية والاستفادة من المواد الطبيعية لصناعة مواد البناء الصديقة للبيئة كالجبس المحلي في منطقة وادي سوف، الذي يتميز بخصائص جمالية أيضا فهو قابل للتشكيل والتطويع والتركيب كيف يريد الانسان ،

ولذلك استعمل في التشكيلات الفنية المختلفة كالكباب والأقواس والنقش بأنواعه، والأعمدة.

الخاتمة

...تبقى أفران الجبس التقليدية رغم اندثارها في منطقة سوف و زوال أكثرها من أهم المعالم التراثية الثقافية ، حيث كان لها الفضل الكبير في انشاء نواة المدينة الاولى وما جاورها من بلدات وقرى ، وبنياتها ومساجدها أكبر شاهد على ذلك ، اذ لا يجب النظر اليها من زاوية واحدة ضيقة وأنها وسيلة لصناعة مادة اساسية ساهمت في اخراج نمط عمراني فريد في الزمان والمكان ، حيث بفضلها ولدت وادي سوف بمعمارها المتميز ، انما ينظر اليها على انها معالم وتراث أثري كان الواجب أن يحفظ ويصان ، ويعرف للأجيال بأنه إرث وملك مشترك لجميع سكان المنطقة، كيف لا وأفران الجبس التقليدية هي التي وضعت ملامح الصورة الأولى لمدينتنا الموغلة أعماقها في جذور الصحراء والتاريخ ، والتي انطلقت بوضع أول حجر في أول بناء ... وليعلم الجميع أن العمارة بالمواد التقليدية تحدد بنسبة كبيرة معالم شخصية المجتمع الحاضر وهو ما يلمس من خلال مباني الجبس التقليدية المبنية في العقود الماضية³⁷ والتي لا تزال شاهدة على عراقة سكان المنطقة وتمسكهم الشديد بعاداتهم وتقاليدهم وهويتهم الثقافية .

فكل حجر يوضع على حجر سيكون له أثره في إرساء معالم شخصية المجتمع المعاصر ويحدد الملامح والمميزات الثقافية لقرون قادمة ...³⁸

و عليه لا بد من العودة إلى تراث الأجداد الأوائل ..، أو على الأقل المحافظة على هذا الإرث في العقول أولاً ثم النزول إلى ما تبقى من هذا التراث الثقافي العريق وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وجعله تراثاً محمياً ومُصاناً للأجيال.



غرف مصنوعة من الجبس المحلي في قلب الغيطان



فرن تقليدي لصناعة جبس البناء على حافة غوط النخيل في وادي سوف



صورة لفرن تقليدي في ثمانينيات القرن 20



فرن تقليدي لصناعة الجبس في "منطقة النشاط" أواخر ثمانينيات القرن الماضي
في حي القارة الغربية

(العمال في الصورة : فتح الله ابراهيم ومحمد بله باسي عليهما رحمة الله)¹

¹ - مصدر الصورة أحد أفراد عائلة فتح الله بحي القارة.



الجبس يعانق الكثبان في وادي سوف

الهوامش :

- 1 - محمد الصالح بن علي : جماليات العمارة التقليدية في وادي سوف حي الأعرشاش نموذجاً - 1400-2011م ، مطبعة مزوار ، الوادي ، ط 01 ، 2013م، ص 66.
- 2 - علي غنابزية : مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية - 1882-1954 رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ، اشراف: أ.د. عمر بن خروف، الموسم الجامعي ، 2009/2008م. ص 285.
- 3 - المرجع نفسه ، ص 287 .
- 4 - وُصنع من جريد النخل .
- 5 - حجر رسوبي كلسي نشأ من مخلفات المياه التي غمرت أرض وادي سوف ، حيث يوجد في غيطان النخيل وفي معظم أراضي المنطقة، انظر : محمد الصالح بن علي ، المرجع نفسه ، ص 70.
- 6 - منطقة بالقرب من بلدية العقلة الحالية ،
- 7 - ابراهيم العوامر : الصفوف في تاريخ الصحراء وسوف ، الشرة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط 1 ، 1977 م ، ص 169.
- 8 - لقاء مع عبد الكريم شتحنونة في حي النزلة بالوادي يوم 5ماي 2016 على الساعة 11:20.
- 9 - نوع من التربة الصلبة شديدة البياض وخشنة ، بعد حرقها ودقها تصير جبسا .
- 10 - ابراهيم العوامر : المرجع السابق ، ص 42.
- 11 - علي غنابزية: مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، اشراف الدكتور عمار بن خروف ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، الموسم الجامعي 2000 - 2001 م ، ص 77.
- 12 - محمد الصالح بن علي : المرجع السابق ، ص 102.
- 13 - علي غنابزية: مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية - 1882-1954 ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ، اشراف: أ.د. عمر بن خروف، الموسم الجامعي ، 2009/2008م. ص 202 .
- 14 - علي غنابزية المرجع السابق ، (رسالة الماجستير) ص 77.
- 15 - محمد الصالح بن علي : المرجع السابق ، ج1، ص ص 102 103 .

- 16 - حي القارة العتيق يعد من أقدم الأحياء في بلدية الوادي يحده شمالا حي تكسبت وجنوبا حي الجدلة والمصاعبة ، وكان يضم العديد من الأفران لصناعة جبس البناء .
- 17 - عبد الكريم شتحونة ، المصدر السابق .(لقاء مسجل) ..
- 18 - لقاء مع عبد الله خلوط في حي القارة يوم 2 ماي 2016 على الساعة 21:14، (من أقدم البنائين في الحي) .
- 19 - لقاء مع عبد القادر خلوط في حي القارة يوم 2 ماي 2016 على الساعة 19:36) اشتغل كاجير في كوشة الجبس).
- 20 - عبد الكريم شتحونة ، المصدر السابق.
- 21 - عبد القادر خلوط المصدر السابق .
- 22 - عبد الكريم شتحونة ، المصدر السابق
- 23 - عمل مدة من الزمن ي الأفران التقليدية مع والده . وله دراية بمراحل تطورها في حي القارة
- 24 - الزنبيل هو جيب مصنوع من سعف النخيل . يختلف حجمه باختلاف نوع الدابة .
- 25 - محمد الصالح بن علي : جماليات العمارة التقليدية في وادي سوف حي الأعشاش نموذجاً - ج 2، مطبعة مزوار ، الوادي ، ط 01 ، 2013م ، ص 60.
- 26 - عبد القادر خلوط ، المصدر السابق .
- 27 - عبد الكريم شتحونة من مواليد 1923 م بالوادي ، يعتبر من أقدم البنائين في المنطقة ، قام ببناء العديد من المرافق مثل المستشفى القديم بالوادي (مستشفى الشهيد بشير بالناصر حاليا) حيث أتمّ بنائه سنة 1957م، وساهم في بناء محطة المسافرين القديمة في حي الأعشاش .
- 28 - توقف عن العمل سنة 1963م.
- 29 - عبد الكريم شتحونة ، المصدر السابق.
- 30 - محمد الصالح بن علي : جماليات العمارة التقليدية في وادي سوف حي الأعشاش نموذجاً - ج 1 . ص 58.
- 31 - عبد القادر خلوط ، المصدر السابق .
- 32 - المرجع نفسه ، ص 58.

33 - رغم زوال الأفران من حي القارة الغربي واندثارها تماما ، إلا أن صناعة الجبس التقليدي بقيت في منطقة الفولية شمال شرق بلدة الرقية، وعرف جبس الفولية بخفته ولا يمكن مقارنته بما كان ينتج في أفران القارة التي تميز جبسها بالقوة والجودة العالية ، أنظر : (تصريح عبد الكريم شتحوه).مُسجّل.

34 - يتميز القرن التقليدي باطلاقه للدخان الكثيف والذي يُرى على بعد كيلومترات من منطقة النشاط ، كما أن طريقة الحرق تغيرت في ثمانينيات القرن 20 حيث تحول الملاك وأصحاب الأفران من استعمال الخشب - الذي يُجلب عادة من شمال الجزائر (منطقة البويرة مثلا) - الى استخدام غاز البوتان الذي سبب أضرارا للعمال والسكان على حد سواء ، كما أثار على نوعية الجبس المصنوع الذي يختلف عن سابقه المحروق بمادة الخشب والحطب .

35 - بدأ التوقف تدريجيا يظهر أواخر الثمانينات وبداية التسعينات من القرن الماضي ، حتى تعطل كامل نشاطها . (تصريح السعيد بله باسي ابن أحد مُلاك الافران بحي القارة).

36 - محمد الصالح بن علي : المرجع السابق ، ج 1 ، ص 60.

37 - توجد في منطقة سوف العديد من البنايات القديمة المبنية بالجبس التقليدي والتي لا تزال شاهدة على ما كان به الجديد في سبيل ترسيخ العادات والثقافات المحلية ، مثل البلية القديمة وبعض الاجزاء من سوق واد سوف المركزي والمستشفى القديم بحي الجلدة ، ومساجد عديدة مثل مسجد مسعود الشابي بسوق الوادي.

38 - اسماعيل سراج الدين : العمارة والمجتمع ، ترجمة، سنان حسن ، مكتبة الاسكندرية للنشر والتوزيع ، ط1، 2004 ، ص 14..